الفصل الحادي عشر

عالَمية الرسالة بين النظرية والتطبيق

كان الوحى الإلهى قديماً يتخير بقاعاً من الأرض لينزل بها كما ينزل الغيث في مكان دون مكان .

لكن بعثة محمد عليه الصلاة والسلام كانت نقلة جديدة بالعالَم كله ، وتحولاً في حركة الوحي الإلهي على ظهر الأرض . إذ جاءت الرسالة الأخيرة لكل بشر يعقل ويسمع ، ثم هى قد صحبت الزمان في مسيرته ، فإذا انتهى جيل من الناس فإن الجيل الذي يليه مُخاطب بها مُكلَّف أن يمشي في سَناها .

والإجماع معقود بين المسلمين على عموم الرسالة وخلودها ، ونريد أن نُلقي نظرة على الآيات التي دلت على عالَمية الرسالة لنستخلص منها حكماً محدداً .

قال تعالى في سورة التكوير : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ (١) .

وقال في سورة القلم : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

وقال في سورة سبأ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) التكوير : ٢٦ - ٢٨ (٢) القلم : ٥١ - ٥٢ (٣) سبأ : ٢٨

وقال في سورة الفرقان : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ (١) .

وقال في سورة الأنبياء : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

وقال في سورة يوسف : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ * وَمَا تَسْأَلُهمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

وقال في سورة الأنعام : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِه وَمَنْ بَلَغَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّه آلِهَةً أُخْرَى ، قُلْ لاَ أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّما هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (٤) .

وقال أيضا في السورة نفسها : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ، قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ، إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٥) .

وهذه الآيات كلها مكيّة ، أي أن عالمية الرسالة تقررت منذ بدأ الوحي وفي الأيام التي كانت الدعوة فيها تُعاني الأمّرين .

كان القرآن يُقرر أنه رسالة للعالَم كله في الوقت الذي كان فيه أهل مكة يستكثرون أن يكون محمد ﷺ رسولاً لهم وحدهم !!

ولم تنزل بالمدينة آية تتحدث عن هذه العالَمية اكتفاءً بما تمهد في صدر الدعوة إلا آية واحدة من سورة الأحزاب هي قوله جل شأنه : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِينَ ﴾ (٦) .

وختم النبوة تقرير لهذه العالَمية فإن القارات الخمس إلى قيام الساعة لن يطرقها من السماء طارق ، ولن يجيئها من عند الله رسول ، وسيبقى كتاب

---

(١) الفرقان : ١ (٢) الأنبياء : ١٠٧ (٣) يوسف : ١٠٣ - ١٠٤
(٤) الأنعام : ١٩ (٥) الأنعام : ٩٠ (٦) الأحزاب : ٤٠

محمد ﷺ وحده صوت السماء بين الناس إلى أن يُحشدوا للحساب فيقال لهم : ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ، فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وآية ختم النبوة صدقتها الأيام المتتابعة فها قد مضت أربعة عشر قرناً وما نزل من السماء وحي .

وقد حاول الاستعمار الأوروبي أن يضع يده على مخبول في الهند وآخر في إيران ليصنع منهما أنبياء يُكابر بهما نبوَّة محمد ﷺ ، وهيهات هيهات فإن الأوروبيين أنفسهم احتقروا الرجل الذي صنعوه فما تبع أحدهم نبي الهند ولا نبي العجم ، وبدأت اللعبة تنكشف ويفر عنها المستغفلون !!

إن الصباح العريض الذي بزغ مع رسالة محمد ﷺ سوف يظل وحده النور الذي يغمر العالَم ويملأ الأفق إلى أن يأذن الله بانتهاء الحياة والأحياء .

وإنما لفتنا النظر إلى أن الآيات الناطقة بعالَمية الرسالة مكيَّة كي ندحض فرية لبعض المستشرقين الذين زعموا أن محمداً ﷺ بدأ عربي الرسالة ، معنياً بقومه وحدهم ، فلما نجح في إخضاعهم أغراه النجاح بتوسيع دائرة الدعوة ، فزعم أنه للخلق كلهم .

وهذا تفكير متهافت بَيِّنُ السخف ، فقد رأيت بالاستقراء أن عالَمية الرسالة تم التصريح بها في أوائل ما نزل من الوحي . !!

ثم نسأل : متى تم خضوع العرب لمحمد ﷺ حتى يُغريه النجاح بمزيد من التوسع ؟ إن مكة التي طاردته لم تُفتح له إلا قبل الممات بسنتين اثنتين ، فأين استقرار النصر ، والتطلع إلى إخضاع الدنيا ، وهو لما ينته من الجزيرة العربية نفسها ؟؟

إن هذا الفكر الاستشراقي لم يلق حفاوة من عاقل ، ولذلك نخلص منه لنقرر

---

(١) الروم : ٥٦

حقائق أخرى نابعة من هذه الحقيقة المؤكدة ، أن محمد ﷺ رسول العالَم من رب العالَمين ...

وأول ما نُقرره أن هذه الصفة انفرد بها محمد عليه الصلاة والسلام ، فكل الأنبياء من قبله محليون ، رسالتهم محدودة الزمان والمكان ، ابتداءً من آدم إلى عيسى عليهما السلام .

والنصاري يرون أن رسالة عيسى عليه السلام عالَمية وينطلقون بها في كل مكان ليُبلِّغوها وينشروها ، ونحن نحب نبي اللّه عيسى عليه السلام ونعتقد أنه رسول حق إلى بني إسرائيل خاصة : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (١) .

على أن النصرانية التي تشيع بين الناس اليوم ، وتساندها قوى كثيرة ، تخالف رسالات السماء كلها ، إذ هي فلسفة تجعل من عيسى عليه السلام إلهاً أو شبه إله ، إلهاً يُرسل الرُسل ، ويُنزِّل الكتب ، ويغفر الذنوب ، ويُحاسب الخلائق !!

والنصرانية بهذا المفهوم المستغرب لا يعنينا أن تكون عالَمية أو محلية ، لأنها شيء آخر غير ما نزل به الوحي على سائر الرسل . قال تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢) .

إن هذه النصرانية الجديدة لا تتصل بعيسى الذي مَهَّدَ لمحمد عليهما الصلاة والسلام .

كما لا تتصل بعيسى الذي بلَّغ تعاليم إبراهيم وبنيه عليهم السلام ، ومن ثَمَّ فهي في نظرنا منهج بشري مستقل بأفكاره عما قبله وعما بعده ..

---

(١) الصف : ٦ (٢) الأنبياء : ٢٥

ورسل الله يُصدِّق بعضهم بعضاً وَيُمَهِّد السابق للاحق ما استطاع .

ورسالة محمد ﷺ أقامت مفهوم العالمية فيها على أن الدين واحد . من الأزل إلى الأبد ، وأن الأنبياء إخوة في التعريف بالله والدلالة عليه واقتياد البشر إليه .

وإن القرآن الكريم جمع في سياقه الباقي كل ما تناثر على ألسنة النبيين من عقائد وفضائل .

ولذلك فإن الإيمان بهم جميعاً مطلوب ، والكفر بأحدهم انسلاخ من رسالة محمد ﷺ نفسه .

ومن الطبيعي أن تبدأ الرسالة عملها في بقعة ما من أرض الله . وقد شرع النبي العربي المحمد يُعلِّم الأميين من عبدة الأوثان ، ويُرشد الحائرين والجاحدين من أهل الكتاب ، وبعد تسع عشرة سنة من الدعوة الدائبة استطاع أن يظفر من الوثنية الحاكمة بحقه في الحياة وحق من يتبعونه في العيش بدينهم والتجمع عليه .

عندما نال هذا الحق في معاهدة الحديبية وأصبح له موضع قدم يستقر فيه ويدعو منه ، أخذ يُرسل إلى أهل الأرض ، يُبلِّغهم الحق ، ويفتح عيونهم على سناه .

ومَنْ أهل الأرض يومئذ ؟ الروم غربي الجزيرة وشمالها ، والفُرس في الناحية المقابلة ، وحكام آخرون يعيشون في جوارهم أو يدورون في فلكهم !

هل كان وراء الرومان من يفهمون الخطاب شمالي أوروبا أو وسطها ؟ أو وسط إفريقيا وجنوبها .

كانت هناك قبائل السكسون والچرمان والغالة والوندال ، وقبائل أخرى مشابهة لها في إفريقيا ، وكانت هناك وراء الفُرس شعوب وصفها ذو القرنين بأنهم لا يكادون يفقهون قولاً .

على أية حال إن النبي المبعوث للعالم أرسل إلى إمبراطور الروم وملك الفُرس وحاكم مصر ونجاشي الحبشة وإلى الأمراء المنتشرين حول الجزيرة يدعوهم إلى توحيد الله واعتناق الإسلام .

لعله بدأ بالجيران الذين يلونه فبلّغ أمر ربه حتى إذا أتم هدايتهم تجاوزهم إلى من يلونهم من أجناس البشر .

أو لعل الفكر البشري في هذه الآونة لم يبلغ درجة الوعي وأهلية الخطاب إلا في هذه البقاع المتحضرة التي ظهرت فيها جمهرة الرسالات السماوية من قديم ...

على أية حال فإن اليقظة الإنسانية التي بدأت في جزيرة العرب ما كانت نهضة جنس متفوّق ، ولا طماح زعيم متطلع ، بل كانت حركة قبيل من الناس اختارتهم العناية العليا ليربطوا جماهير البشر باللّه الواحد ، وليسيروا في هذه الدنيا وفق هُداه لا وفق هواهم :

﴿ الر ، كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (١) .

وأكذب الناس على اللّه وعلى عباده من يزعم الإسلام طوراً من أطوار البعث العربي .

إن هذا الكلام لا يساويه في الرخص والغثاثة إلا ما تضمنه من إفك وتضليل ، فإن محمداً عليه الصلاة والسلام رفض رفضاً باتاً أن يكون للعرق أو اللّون ، أو القوة ، أو الثروة أى رجحان في موازين الكرامة الإنسانية ، والمحور الذي دار عليه الإسلام هو التوحيد في العبادة والتشريع والوجهة والولاء .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ، لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢) .

وقد قلنا ، ولا نزال نقول : إن اللّه ربّى محمداً ﷺ ليُربّي به العرب ، وربّي العرب بمحمد ﷺ ليُربّي بهم الناس ، فرسالة العرب أن يكونوا جسوراً لهدايات السماء ، وأن يُعلّموا الخلق ما تعلّموه من الخالق .

---

(١) إبراهيم : ١ - ٢ (٢) الأنعام : ١١٥

وإذا كانوا تلامذة لخاتم الرسل ، فهم - بما درسوا - أساتذة للشعوب الأخرى ، تتلقى عنهم وتستضيء بهم .

وهذه المكانة للأمة العربية مكانة عالية حقاً ، بَيْد أنها لا تقوم على الدعوى ، بل على البلاغ ، ولا تقوم على البطالة بل على التضحية ، وذلك معنى قول الله تبارك اسمه : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (١) .

وقد قامت دولة الإسلام بدورها العالمي هذا ، على عهد النبوة وأيام الخلافة الراشدة ، وتدافع التيار إلى مداه أيام الأمويين والعباسيين والعثمانيين ، وإن كان هذا التيار قد شابه من الكدر والدَخَن ما أزري به ، وحط قدره ، حتى توقف آخر الأمر .

والمسلمون في هذا العصر يكادون يجهلون أن لهم رسالة عالمية ، بل إن حياتهم وفق شرائع دينهم وشعائره موضع ريبة وقد تكون موضع مساومة .

وأذكر أن حواراً دار بيني وبين الأستاذ على أمين بعد ما كتب يستنكر أذان الفجر ، ويزعم أنه يزعج النيام المستريحين (!) قلت له : إن إيقاظ الناس للصلاة مقصود قصداً ، وفي آذان الفجر كلمة تقول : « الصلاة خير من النوم » ! قال : من أراد الصلاة فليشتر منبهاً يُوقظه ليُصلّى .

قلت له : إن جمهور المسلمين - وهم كثرة هذا البلد - يريدون الصلاة علانية ، ويريدون أن يصبغوا الحياة الاجتماعية بها ، وأن يُنظّموا نومهم ونبههم على أوقاتها . فإذا شاء الكسالى غير ذلك فليتواروا بإثمهم ، لا أن يفرضوه على المجتمع ، ويطلبوا من المؤمنين التواري بدينهم .

---

(١) الحج : ٧٨

وأشهد أن الرجل لان وتأثر واستكان ، وأرجو أن يكون قد تاب ومات مغفوراً له ، وإنما ذكرتُ هذا الحوار ليعرف من يجهل مبلغ ما انحدرت إليه أُمتنا .

إن الشيوعية تريد أن تكون نظاماً عالَمياً ، وكذلك المادية والإباحية ، وكذلك الصهيونية والصليبية . أما الإسلام فإن طبيعته العالَمية يُراد إنكارها ، وإذا تم ذلك فإن وجوده المحلي ينبغي الخلاص منه والإجهاز عليه ...

وأُريد أن نعرف : مَنْ نحن ؟ وما ديننا ؟ وما هدفنا ؟ وما طبيعة جهادنا ومداه ؟

إننا ورثة الإسلام وحَمَلته ، وأصحاب الحضارة الوحيدة التي تعترف بالدنيا والآخرة والروح والجسد والعقل والعاطفة .

وفي قرآننا وسُنّة نبينا صلاحنا وصلاح العالَم من حولنا ، وقد هُنّا على أنفسنا فكان طبيعياً أن نهون على غيرنا ، وزهدنا في ديننا فكان طبيعياً أن يزهد العالم فيه ..

وقد بدأت في الأُفق تباشير عودة ناجحة إلى هذا الدين العظيم ، فلنصوِّر بدقة طبيعة النور الذي خصنا اللّه به ، طبيعة الرسالة التي شاء اللّه أن تُحِقَّ الحق وتُبطِلَ الباطل ، وتهدى الحياري في المشارق والمغارب . ويفرض علينا هذا المعنى أُموراً ذات بال ..

أولها : ما دام محمد ﷺ للعالَم كله وليس للعرب خاصة ، فيجب علم العرب - وهم الذين تحدث محمد ﷺ بلغتهم وكلّفهم بنقل رسالته إلى غيرهم - يجب عليهم أن يوصلوا هذا القول إلى كل قبيل من الناس ، وبكل لغة يتم التفاهم بها ..

أي أنه يجب عليهم أن يتقنوا كل اللُّغات العالَمية ، وما استطاعوا من اللُّغات المحلية ، وأن يودعوا كل لغة خلاصة كافية هادية من تعاليم الإسلام في مجال العقيدة والخُلُق والعبادة وشتّى أنواع المعاملات ...

وأن يذكروا بدقة ولطف الفروق الكبيرة بين أُصول الإيمان عندنا وعند أهل الأديان الأُخرى سماوية كانت أم أرضية ..

إن هذا الواجب لم يكن منه بُدٌ حتى لو كان الميدان خالياً لنا وحدنا ..

فكيف وهناك أجهزة عالمية مخوفة تخصصت في تحقير الإسلام وإهانة نبيه ؟

فكيف وقد تآمرت على الإسلام شتّى القوى ، وتألب ضده خصوم خبثاء يصطادون الشُبه ويتلمسون للأبرياء العيوب ؟

إن الاستعمار سَخَّر أجهزة إلحادية وصليبية سبقتنا إلى أجيال كثيفة من الزنوج والجنس الأصفر ، وتركت في نفسه سموماً ضد محمد ﷺ ودينه ، وانتهزت الصمت الذي خيَّم على أجهزة الدعاية الإسلامية ، والسلبية المشينة التي لُذنا بها ، وراحت تكذب وتكذب ، حتى نجحت في تلويث سمعتنا ، وقدرت على غرس تدين مختل الأصول مضطرب السلوك .

وأمكنها بسهولة أن تصد عن سبيل اللّه ، وتردم معالم الصراط المستقيم .

إن ذلك يوجب علينا الإحساس المضاعَف بخطئنا وتخلفنا ويُحمِّلنا عبء المسارعة إلى تعليم الجاهل ، ومراجعة المخدوع ، وتعريف الناس بربهم الواحد الأحد الفرد الصمد ، وربطهم بالدين الذي حمل رايته جميع الأنبياء ، ثم نقّاه وشد دعائمه وثبّت أهدافه النبي الخاتم محمد بن عبد اللّه ﷺ .

والأمر الثاني المتصل بعالمية الرسالة يرجع إلى اللُغة العربية ، فلُغة الرسالة الخالدة يجب أن تتبوأ مكانة رفيعة لدى أصحابها ولدى الناس أجمعين ، فإن اللّه باختياره هذه اللُغة وعاءً لوحيه الباقي على الزمان - قد أعلى قدرها وميَّزها على سواها .

والواقع أن اللُغة العربية مهاد القرآن وسياجه ، فإذا تضعضعت وأُقصيت عن أن تكون لغة التخاطب والأداء ولغة العلم والحضارة أوشك القرآن نفسه أن يوضع في المتاحف ..

ولهذه الغاية الخاسرة تعمل فئات غفيرة من المستعمرين وأذنابهم ، وما أكثر أولئك الأذناب في الجامعات والمجامع ودور الإذاعات والصحف وغيرها ..

إن آباءنا عليهم الرضوان نشروا اللُغة العربية بكل الوسائل المتاحة لهم ،

وما تأسست مدرسة لخدمة الدين إلا انقسمت علومها بين مناهج الشريعة ومناهج اللُّغة والآداب ..

ويُلاحَظ الآن انكماش مفزع في هذا الميدان ورواج سمج للهجات العامية والمصطلحات الأجنبية والترجمات الركيكة والكلمات الدخيلة ..

واللُّغة العربية لا تُخدَم بالحماس السلبي ، بل لا بد من إعادة النظر في شئون شتَّى تتصل بكيانها وتعليمها ..

ولنُفرِّق من الآن بين طرق تعليمها للتلامذة العرب والتلامذة الأجانب ، ولنبتكر أساليب ميسورة لتدريس المصادر وتصريف الأفعال وجموع التكسير وأنواع المترادفات وغير ذلك مما يُعانيه طُلاَّب العربية ..

إن هناك لُغات لم يُشرِّفها اللّه بوحي ، ولم تصحب حضارة إنسانية مُشرقة يخدمها أبناؤها بذكاء نادر ، فما دهى العرب حتى تركوا لغتهم توشك أن تكون من اللُّغات الميتة أو الثانوية في هذه الدنيا ؟

إننا عجزنا عن جعل اللُّغة العربية لُغة أُولى بين الألف مليون مسلم الذين يعتنقون الإسلام ، وهذا وحده فشل ذريع نؤَاخذ به يوم الحساب .

ويرجع هذا الفشل إلى أن العرب أنفسهم لا يجلون لغتهم ، بل لقد استطاع الاستعمار الثقافي أن يكرهها لهم أو يحقرها لديهم .. فأي بلاء هذا ؟

والمطلوب الآن للفور إقصاء اللهجات العامية والرطانات الأعجمية عن جميع منابر الصحافة والإعلام وإعادة الحياة إلى اللُّغة الفصحى في كل محفل ..

وأُكرر مطلباً آخر ذكرته في أحد المؤتمرات وهو إنشاء مدارس وإرسال بعثات لنشر اللُّغة العربية وحدها أي دون ربط اللُّغة بالدين ، فإن هذا التعليم المجرد سيوسع القاعدة للغة القرآن ، وسيكون يوماً رافداً من روافد الحق والإيمان .

والأمر الثالث والأخير في عالمية الدعوة يتصل بالوضع الأدبي والمادي داخل الأمة الإسلامية نفسها .

إن الخُلُق الزاكي لغة إنسانية عالمية تعجب وتقنع ، وبهذه اللُّغة تفاهم الصحابة والتابعون مع الشعوب التي عرفوها وعرفتهم فدخل الناس في دين الله أفواجاً .

أي أن القدوة الحسنة - فردية كانت أو جماعية - تفرض احترام العقيدة والحفاوة بها .

وهذه القدوة ليست دوراً تمثيلياً يُؤدَّى إلى الخداع واجتذاب المشاهدين ، كلا كلا .. فحبل الكذب قصير !

إن هذه القدوة هى الحلاوة في الثمرة الناضجة ، أو الرائحة في الزهرة العاطرة ، أي هى نضج الكمال الذاتي الحق .

وقد شاء الله أن يُؤتَي السَلَف الصالح أنصبة جزلة من هذا الحُسن الذاتي ففتحت لهم المدن العظام أبوابها ، وألقت إليهم الجماهير بقيادها ..

وإنني أشعر اليوم بغضاضة شديدة حين أرى السائحين والسائحات يجوبون بلادنا ويدرسون أحوالنا ، ثم يتجاوزوننا بقلة اكتراث أو باستهانة بالغة .

إنهم لا يرون - فيما يشهدون - أثر الإسلام الحق في نظافته وسموه ، بل يرون شعوباً أقل منهم كثيراً في المستوى الحضاري ولا أقول في المستوى الخُلُقي المعتاد .

وتلك أحوال تصد عن الإسلام ولا تُغري باعتناقه .

وعالمية الإسلام تفرض على أتباعه أن يُقدِّموا من سلوكهم الخاص والعام نماذج جديرة بالإكبار ، أو على القليل جديرة بالسؤال عن حقيقة الإسلام لمن لَمْ يعرفوا هذه الحقيقة ، وما أكثرهم في أرض الله .

* * *

• لأجهزة الإعلام رسالة :

من نماذج عرض الدعوة الإسلامية هذا القول المحدد : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ (١) .

أي أعلمتكم بما عندي فأصبحنا جميعاً أنا وأنتم سواءً في معرفة العقيدة التي أنادي بها . فإن انصرفتم بعد ذلك فعن تجاهل لا عن جهل إذ أني أفرغت جهدي في البلاغ المبين ! إن ما أدعو إليه معروف لكم كما هو معروف لي .

وهذا الكلام يفرض على الإعلام الإسلامي الشمول التام ، فكما أن وسالة الإسلام عامة إلى الخلائق لا يشذ منها أحد ، فكذلك تعاليم الإسلام يجب أن تقدم كلها عن طريق أجهزته العاملة فلا يخفي منها شيء بحيث يكون الداعي والمدعو سواءً في الإحاطة بمحتويات هذا الدين دقيقها وجليلها ...

وهذا الآذان المستوعب أو الإعلام الشامل يتم في نطاق المياسرة والمجاملة والرغبة عن النزاع والإثارة ، فإن ذلك ما تُوحي به الآيات الآتية :

﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ، إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ * وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (٢) .

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ، وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ، اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٣) .

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٤) .

والعرض الإعلامي الحريص على بث الحق وإيثار السلام ورفض الشحناء يستطيع أن يُبرز تعاليم الإسلام في صور شتى لعل أيسرها الخبر المجرد ، لكن

---

(١) الأنبياء : ١٠٨ ـ ١٠٩ (٢) الحج : ٦٧ - ٦٩

(٣) الشورى : ١٥ (٤) النحل : ١٢٥

أيكفي ذلك في عالم تبرجت فيه الدعوات وافتتنت فيه أساليب الاستهواء ، إن الحوار الزكي في قصة شائقة أو تصوير الواقع في هذه القصة بل الصورة الساخرة والنكتة البارعة ، إن هذه جميعاً أصبحت من وسائل البلاغ المبين بل أصبحت وسائل محتومة لقوله تعالى : ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً ﴾ (١) .

وذاك ما لا بد أن تدركه أجهزة الإعلام الإسلامي .

الإسلام دين متحرك سيّال لا يعرف الجمود في مكان ولا زمان ، وهذا التمدد في طبيعته يتم وفق عناصر الشمول والمياسرة التي أبناها .

فنحن المسلمين مُكلّفون أن نبسط وجهة نظرنا في كل شيء مقرونة بالأدلة المقنعة التي توضّح موقفنا وتحدد منْ نحن ؟ وماذا نريد ؟ وكذلك يجب أن نعرف ما لدى غيرنا بدقة وإنصاف ثم نترك للعقل الإنساني العادي أن يقارن ويحكم !

إن القرآن الكريم طلب من معارضي الدعوة أن يأتوا بما لديهم من أدلة على وجهة نظرهم :

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ منْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

وذلك في جداله الحسن مع أهل الكتاب ، وقد تكرر هذا الطلب في الحوار الطويل مع المشركين :

﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ منَ السَّماءِ وَالأَرْضِ ءَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣) .

وانعدام البرهان هو الذي جعل الفتية المؤمنين أصحاب الكهف يزدرون الشرك ويرفضون البقاء عليه :

﴿ هَؤُلاَءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا منْ دُونِهِ آلِهَةً ، لَوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ (٤) .

---

(١) النساء : ٦٣ (٢) البقرة : ١١١

(٣) النمل : ٦٤ (٤) الكهف : ١٥

والسلطان البيِّن هو الدليل المقنع ووجهة النظر المحترمة المدعومة ، فمن كان منطقه صفراً من هذا السناد فليواجه مصيره العدل عند الله :

﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَـٰهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ (١) .

ومن هذا العرض يستبين المنطق الذي تعمل منه أجهزة الإعلام الإسلامى ، إن لديها ثروة طائلة من الحقائق الدينية والاجتماعية والسياسية . وهذه الثروة تحتاج إلى ذكاء حاد في استكشافها وتربيتها كما تحتاج إلى لياقة واسعة في قرع الآذان بها أو تفتيح الأعين عليها .

ولن يتم ذلك إلا بين يدي دراسة مستبحرة لما عند الآخرين واستبانة واعية لكل ما يكون وجهة نظرهم وسر رضاءهم بما عندهم .

ومحور الإعلام الإسلامي هنا هو الصدق ونشدان الحق وحب الخير للناس أجمعين .

الإعلام الإسلامي يرسم صورة صادقة برسالة محمد ﷺ لا تزيد فيها ولا نقص ، وليس لديه كما ذكرنا ما يخفيه أو يستحي منه ، وهو حسن الظن بالفطرة الإنسانية يرى أنها يوم تعرف الحق تبادر إلى قبوله وأنها إن تريثت فإلى حين !! .

أي أن جمهرة البعيدين عن الإسلام لم يعتنقوه لجهلهم به فقط .

﴿ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

ومن هنا فالعبء ثقيل على أجهزة الدعاية الإسلامية التي ينبغي أن تعمل ليلاً ونهاراً لمحو هذا الجهل الغالب .

والاقتناع الحر أساس النجاح المرتقب ، وهذا يقتضي مهاداً طويلاً من العناصر الثلاثة التي أحصاها القرآن في دعوته : الحكمة والموعظة الحسنة والجدال الهادي الرفيق والزمن جزء من العلاج فليس من العقل أن تبذر اليوم لتحصد اليوم !

---

(١) المؤمنون : ١١٧ (٢) الروم : ٣٠

لا بد من إعداد برامج طويلة ، ومن تقليب النفس الإنسانية بين ألوان من الفكر والعاطفة ، ومن تجربة مفاتيح كثيرة لنصل إلى غورها ، فإن تحويل الناس عن مواريثهم الروحية والاجتماعية جهد بعيد المدى ما ينجح فيه إلا المخلصون الأزكياء ...

وصوت الإسلام في ميدان الإعلام يجب أن يكون جهيراً ، فإن لصاحب الحق مقالاً . إن التعريف بالله الواحد ودينه الحق قضية لا تُعالَج بفتور واسترخاء .

وإذا كان هناك من يعتبرون الإلحاد ذكاءً وتقدماً ويبذلون في سبيل نشره جهوداً مضنية ، فإن حملة الإسلام سيكونون أطول نَفَساً وأشد غيرة وأرسخ قدماً : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ ﴾ (١) .

ويعني هذا : أن الإعلام الإسلامي وثيق الايمان برسالته عظيم المغالاة بها ، وأن الصبغة الدينية والعبادية لا يمكن أن تنفك عن أعماله وسائله المختلفة .

وأجهزة الإعلام عندما تؤدي دورها - والحالة هذه - هي ميادين جهاد ومساجد صلاة ومدارج تقوى ورضوان .

والشمول في المادة التي يقدمها الإعلام يتناول الإسلام وتاريخه وحضارته وأمته .

وكلمة الإسلام عنوان على حقائق العقيدة والشريعة والعبادات والأخلاق وشتّى المعاملات .

وكلمة التاريخ عنوان على الوقائع والسياسات التي نشأت عن المد الإسلامي من أربعة عشر قرناً .

وكلمة الحضارة عنوان على النشاط الفكري والروحي والعمراني وجملة القيم الدينية والمدنية التي صاحبت مسيرة الإسلام واستقرت معه حيث استقر أو تأثرت بقية العالَم بها .

---

(١) البقرة : ١٦٥

وكلمة الأمة الإسلامية تعني جميع المنتسبين إلى رسالة محمد ﷺ من كل الأجناس والألوان سواء أكانوا شعوباً مستقلة أو « أقليات تحيا وسط أمم أخرى » ..

إن أجهزة الإعلام الإسلامية تهتم بذلك كله ويبدو اهتمامها في برامجها المسموعة والمرئية والمقروءة على أساس أن العالم الإسلامي وحدة متماسكة مهما بلغت جسامة الفتوق في كيانه ومهما وهت علاقة بعض أجزائه بالأصل الجامع والروح الشائع ..

وإعلامنا - كما قلنا - يُقرر ما عنده كله ، وسيكون هناك خلاف بين ما يقرره وما تقرره ملل ومذاهب أُخرى كثيرة ، وهنا لا بد من إبراز الشخصية الإسلامية دون ميوعة أو تفريط إبرازاً يؤكد شرعيتها ووجهتها ومنهجها وغايتها ويُرجح لدى المشاهدين والمتابعين كفتها بأدب وتلطف ...

إن إعلامنا صورة لما نقول ونؤمن ، وصدىً لما ننشد من خير للحياة والأحياء ..

ونحن مسلمون ، والإسلام دين ودولة ، إيمان ونظام .. فليرنا العالم أجمع من خلال إذاعتنا وصحافتنا ، من خلال كتبنا ورسائلنا ، من خلال اجتماعاتنا ومؤتمراتنا على هذا الواقع الدائم .

لكن كيف يؤدي الإعلام الإسلامي هذه الوظيفة الكبيرة ؟ إننا لا نعرض طريقة واحدة لهذا الأداء بداهة فما أكثر صور العرض ، وصدق النية يدفع إلى الاكتشاف والاختراع ...

إنه يمكن تقديم درس في التوحيد وتمجيد الخالق لا بقراءة نظرية تقليدية بل ببضع دقائق في التلفاز تبرز فيها على الشاشة الصغيرة صورة كونية فخمة تتجلى فيها مظاهر القدرة العليا وتصحبها كلمات سريعة موجزة تدل على أن العلم يقود إلى الإيمان .

إن أجهزة الإعلام في العالم كله تنطلق من مباديء معينة وتخدم مصالح معينة ، والإعلام الإسلامي يرتبط بمباديء ومصالح معروفة المصدر والنسبة ، فلا وجه للغرابة إذا كانت تعاليم الدين ولُحمته وسُداه ، وإذا كان - شأن غيره من الأجهزة - يفسر وقائع الحياة وفق فكرته هو وينظر اليها من زاويته هو ...

الإعلام حتى في نشرات الأخبار وسوق الأحداث يكشف عن فلسفته ومذهبه وتقديره الخاص لما يكون . وهو في مواد الثقافة ومواد الترفيه أيضاً يُضفي على الحياة لونه الخاص ويعمل في ذكاء لتذكير مَنْ ينسى وتعليم مَنْ يجهل .

وأجهزة الإعلام الإسلامي حين تنهض بواجبها تغرس العقائد والعبادات التي تتبناها وتُعلي شعاراً واحداً في برامجها ووسائلها كلها ...

ولما كانت هناك قوى تعارض فكرنا وتكره شعارنا وتُثير الشُبَه ضد قضايانا وتحاول بكل طريقة النيل منا فنحن مضطرون أن نلحظ ذلك فيما نقول ونفعل !! لا نرد رداً مباشراً ، بل لنبني عرضنا على نحو يكشف في هدوء ما قد يُثار ضدنا ويشرح بلطف تهافته وضعفه ...

وإذا احتاج الأمر إلى مقارعة إعلام آخر يتهجم علينا التزمنا فضائل الإسلام في الرد والتمحيص فذاك أليق وأجدى !

وهناك نقاط أرى ضرورة الحديث فيها كي يتضح دور الإعلام الإسلامي في العلاقات الإنسانية .

نحن المسلمين نؤمن بالإخوة الإنسانية ، ونعد اختلاف الأجناس والألوان مصدر تعارف لا تناكر ، ونود أن يحيا أهل الأرض في ضوء قوله تعالى :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾[1] .

وقصة دار الإسلام ودار الحرب فرضتها علينا ظروف خارجية ومؤامرات عدوانية . فإن هناك للأسف من يستكثر علينا حق الحياة بديننا ، ويريد بشق النفس أن يجتاح عقائدنا ويجتاحنا معها ..

﴿ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ [2] .

ومن حقنا أن نواجه هذا التحدي الذي فرض نفسه على العلاقات الدولية قديماً ، فإذا انتهى انتهت معه آثاره وما أشوقنا إلى انتهاء هذه الأوضاع .

---

(١) الحجرات : ١٣ (٢) البقرة : ٢١٧

لكن أتُراها زالت ؟

إنه مطلوب من العرب أن يرتدوا عن دينهم ويتنازلوا عن أرضهم بكل تبجح !..

فهل يمكن إرساء العلاقات الإنسانية على هذا الأساس المنهار ؟ إن الإعلام الإسلامي ينشغل بهذه القضية انشغالاً محيطاً فليس الإسلام بالدين الذي يُطارَد ولا المسلمون بالأمة التي تُستَباح .

ويمكن بسط هذه القضية عن طريق المقال والكتاب والقصة والتعليق والخبر وإحياء التاريخ الماضي وكشف التاريخ المعاصر وعقد الدراسات والندوات وغير ذلك مما يحط عن المسلمين أوزار هذا الظلم الفادح ...

وشيء آخر يتصل بالكيان الإسلامي ويدخل في رسالة الإعلام .

إن عدد المسلمين اليوم يبلغ « المليار » وإن مارت في ذلك مؤسسات استعمارية ..

وأكثر من ربع هذا العدد يعيش على شكل « أقليات » داخل دول أخرى كبيرة وصغيرة وربما عاش في ظل نظم تبغضه وتود له العنت والدمار ..

وجدير بوسائل الإعلام الإسلامى أن تقترب من هؤلاء الإخوة ، بل أن تخالطهم وتتعرف على آلامهم ومشكلاتهم .. وتلك فريضة تنبع من تضامن المسلمين ومن الجامعة الكبرى التي تشد أطرافهم في كل القارات .

ويمكن إشعار هؤلاء أنهم موصولون بأمتهم الكبرى عن طريق أركان دائمة لهم في صنوف الإذاعات ، وشتّى الصحف والمجلات .

إنهم إن شعروا بالقطيعة والوَحشة استسلموا لما يُراد بهم وتفانوا في أديان ومذاهب أُخرى وهذه طامة .

لننتقل إلى ميدان الأسرة لنرى أثر الإعلام فيه ، وكيف حاول الإعلام المضاد لدينا أن ينال من شريعتنا وتقاليدنا الطاهرة ...

لقد رأيت الجهود المبذولة لتنصير قوانين الأسرة الإسلامية ولمست عشرات الحيل التي اتُخذت لجعل المسلمين يقبلون قانوناً جديداً للأحوال الشخصية يبدأ بسلب الرجل حق الطلاق ، وبشجب مبدأ تعدد الزوجات ، وينتهي بإلغاء التفرقة بين الذكر والأنثى في الميراث ...

عُرِضت روايات تمثيلية للرجل يقول كلمة عابرة فتُلقَي بها امرأة وأولادها في الطريق ، أو لرجل متزوج من أربع وأعجبته خامسة فجاء بـ « المأذون » ليُطَلِّق واحدة مكان الواحدة الجديدة ولم يكن يدري بالضبط مَنْ التي يريد تسريحها .. ؟؟

ونُظِّمت حملات دعائية رهيبة ضد زيادة النسل ، بل اقتُرح حرمان الولد الثالث من حق التعليم والتموين والتمريض ... إلخ .

- ويلاحَظ أن تحديد النسل يُشجَع على أوسع نطاق بين المسلمين وحدهم ، وأن أتباع الأديان الأخرى لديهم تعليمات مشدَّدة بتكثير النسل ، بل لدى الشيوعيين هذه التعليمات !!!

واستطاع من أعداء الإسلام في رسائل الإعلام أن يُقدموا للمسرح رواية « ديك وتسع فراخ » وأن يُبرزوا في الصحافة صورة ساخرة لمحمد أفندي الذي تزوَّج تسعاً .. والقمة الإنسانية التي يُراد غمزها بهذه العناوين معروفة !!

وإذا كان الكافرون بديننا يستغلون الإعلام لترويج سخافاتهم أفلا نستطيع نحن أن نستغل الإعلام لدعم فضائل الفقه والطهارة والاستقامة التي ينشدها الإسلام للأُسرة خاصة وللعلاقة العامة بين الجنسين ..؟

لقد هُزِمَ حظر الطلاق في إيطاليا - مقر البابوية - بعد استفتاء عام وبعد تظاهرات عنيفة سارت فيها ملايين من الجنسين . وهُزِمَ هذا الحظر بإقصاء القوانين الكنسية في أغلب البلاد النصرانية ، أفلا يستطيع الإعلام الإسلامي أن يشرح عملياً قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاً مِنْ سَعَتِهِ ، وكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً ﴾ (١) .

---

(١) النساء : ١٣٠.

وأن يسوق القصص الحق - لا الروايات المختلقة لإقرار مبدأ الطلاق ، وجعله في يد الرجال ؟

وإذا كان هناك من يُسيء استعمال هذا الحق فلا ينقطع بوسائل الإعلام الكثيرة فهلا في ترشيده وإلزامه الجادة ؟

والإسلام حرَّم الزنا تحريماً صارماً وأباح تعدد الزوجات إن ضُمنت العدالة !

فهل أوروبا التي حرَّمت التعدد حظرت الزنا أم جعلته كلاً مُباحاً ؟ ألم تنتشر هناك الخلائل لتحل مكان الحلائل ؟ ألم يُتح للرجل أن يُطيح بعفاف العشرات في سر أو علن ؟

ألم يتحوَّل الرقص المزدوج إلى تقليد رسمي قائم يرى فيه الرجال زوجاتهم في أحضان الآخرين ، - تُرى أهذا العناق فرصة لذكر الله وإصلاح ذات البين ؟؟

إن الإعلام الإسلامي يقدر على شرح أحكام الأسرة بوسائل لا حصر لها ، ويقدر على سحق الهجوم الجاهلي المستهين بحدود الله ...

ذكر لي صديق قادم من إحدى عواصم الغرب أن سيدة أبدت إعجابها الشديد بما أوجبه الإسلام من نفقة للفتاة إن لم تكن على أهلها فمن بيت المال ، قالت هذه السيدة : إن تكليف الفتاة بالكسب عند بلوغ سن الرشد ، ومنع أى عون عنها كان من أهم الأسباب لاستسلام المرأة وذهاب عفافها ..

ولو نُفذت تعاليم الإسلام فى هذا المجال لحُفظت أعراض كثيرة ..

ونستطيع عن طريق الأركان المخصصة للمرأة فى الإذاعة والصفحات المخصصة لها فى الجرائد والمجلات أن نغرس فضائل كثيرة ، وأن نمحو ونثبت فى التقاليد التى تحكم البيت والمجتمع وأن نُزوِّد الفتيات والأمهات بنصائح تُعين على إنشاء جيل قوى محترم منتج ...

نحن المسلمين ننظر إلى الإعلام وإلىّ وسائله الرائعة التى ابتدعها العصر الحديث على أنها إمكانات ضخمة لنشر الحق وأخذ الناس به خصوصاً الأجيال

الناشئة ... وفى أقطار كثيرة كان الإعلام عنصراً فعّالاً فى نشر ثقافات شعبية جيدة ، وفى تعويد الجماهير عادات صائبة نافعة .

وإذا كانت قاعدة الإعلام عندنا أن يعرف الناس مَنْ نحن ؟ وما رسالتنا فى الحياة ، فإن ذلك قد يتقاضانا أن ننقد أنفسنا وأن ننبه إلى أخطاء وقع فيها الخاصة والعامة لا تُعتبر ترجمة أمينة لكتابنا وسُنَّة نبينا ...

أعتقد أنه يجب أن ينتعش بين المسلمين فن « النقد الذاتى » وهو فن يقوم على محاكمة الواقع الإسلامى إلى المُثل المقررة فى الإسلام ذاته ، وبيان مسافة القُرب والبُعد والصواب والخطأ فى هذا الواقع المضطرب ...

وهذا النقد هدفه إنصاف الإسلام ذاته وإعطاء أجهزته الإعلامية قدرات على صدق التعبير وحماسه ...

إن ثمت إجماعاً على أن المسلمين منحرفون عن دينهم ، وأن هذا الانحراف يشمل سلوك الفرد والمجتمع ، وتكاد الدول الإسلامية كلها تُعَد فى جملة الدول المتخلفة ... وهذا الهوان الحضارى سوف ينسحب على الإسلام ذاته شئنا أم كرهنا ، وسيظن كثيرون أنه يكمن وراء قصورنا وتقصيرنا .

ولكى نُجنِّب ديننا هذا الظلم الشديد ينبغى أن نذكر الحقيقة مستقاة من مصادرها الدينية الوثيقة ثم نذكر العوج الملحوظ فى أحوالنا وأفعالنا وبراءة الإسلام منه ، وهذا النقد الذاتى ينهض على دراسة عميقة للإسلام وتاريخه وحضارته ، ولا مانع بتة من أن تتسع دائرته لتتناول أخطاء وقعت فى الماضى . فإن المسلمين غير معصومين ، أما الإسلام نفسه فمعصوم !!

ويتمم هذا المعنى نقد علمى آخر للمعارضة الناقمة على ديننا والتى اعترضت من قديم سيرته ، ومحور هذا النقد تفنيد التهم والشُبهات التى أثارها المبشرون والمستشرقون أصحاب الأغراض المغشوشة والمنهج العلمى المكذوب ...

والإعلام الإسلامى عندما يقوم بهذا الجهد الداخلى والخارجى يُوفر جواً نظيفاً لمعرفة الإسلام ، ومعرفة الخير العظيم الذى أسداه محمد ﷺ - للعالَم .

وبقى عنصر أخير فرَّطنا فيه كثيراً وهو تعليم اللُّغة العربية ، سواءً للمسلمين الأعاجم أو لغير المسلمين ! إن الجهل باللُّغة العربية يشيع بين ٨٠ أو ٨٥ فى المائة من المسلمين ، وأما الجهل بها فى أرجاء العالَم فشئ مفزع ، ولا يمكن عدُّها لغة عالَمية مع أنها الوعاء الفذ للرسالة العالَمية الوحيدة التى طرقت أبواب العالَم ، وشاء القدر الأعلى أن تبقى فيه إلى يومه الأخير .

ونحن نطلب ثلاثة أشياء محددة لإحياء اللُّغة العربية والحفاظ على مكانتها :

١ - تأليف بعثات وجماعات لتعليم اللُّغة وحدها دون ربط هذا التعليم بالبلاغ الدينى ، أى تهيئة معرفة اللُّغة وإتقانها لأى إنسان يطلب المزيد من الثقافة . وسوف يجنى الإسلام على المدى البعيد ثمرة الازدهار اللُّغوى المجرد .

٢ - الجد فى محاربة اللهجات العامية - داخل الوطن العربى - وتضييق الخناق عليها ومنع البرامج التى تُقدِّم الأحاديث باللُّغات العامية ومنع الأزجال والمواويل والشعر الفوضوى المبتدَع أخيراً ، والذى يسمونه الشعر المُرسَل .

٣ - إحياء الأدب العربى الخالص وتقريبه من طبيعة العصر ، أى تجريده من التكلف وافتعال المُحسِّنات اللَّفظية ، وتشجيع الشعراء المجيدين بشتَّى الوسائل ...

وقبل ذلك ... لا بد أن تقوم مجامع اللُّغة العربية بجهد محترم فى نشر ألفاظ الحضارة وجعل العربية لُغة للعلوم الحديثة ...

إن العناية باللُّغة العربية جزء حقيقى من عمل الإعلام الإسلامى ، وخطوة مقصودة ليعرف العالَم أجمع مَنْ نحن ؟ وما رسالتنا ؟.

وتلك هى الوظيفة العتيدة لأجهزة الإعلام ، ومنها تبدو النظرية الإسلامية للدعاية الإسلامية والعلاقات الإنسانية .

* * *

● **كم مُخاً غسلوه ... أو بتعبير صحيح : لوَّثوه :**

نجح الإعلام المعادى للإسلام فى بلوغ أهدافه ، واستطاع بالثقافة المسمومة واللَّهو الرخيص أن يُفسد الأفكار ، ويُعلِّق النفوس بالدنايا ..

وهذا نجاح محدود الضرر ، أما النجاح الفادح الضرر المخوِّف النتائج على المدى القريب والبعيد فهو ما خلّفه من عوج فى شتّى المؤسسات الاجتماعية والسياسية ، بل فى شتّى المؤسسات التربوية والعلمية ..

لقد نظرتُ إلى هذه المؤسسات الموَّجهة لأُمتنا فوجدتُ الصف الأول من قادتها يحمل أسماء إسلامية وقلوباً فارغة من الإسلام أو مُرتّدة عنه ، حتى لقد استطاع جاسوس يهودى ذكى أن يصل الى هذا الصف ، وأن يُرشَّح لإحدى الوزارات وما كشفته إلا المصادفات !!

هذا اليهودى لم يتكلف صلاة ولا صياماً ولا شارة من شارات التدين ، فالأمر يتطلب إطراح هذا كله .

وتتبعتُ سيرة أحد الزعماء الكبار فوجدته يسترضى اليهود ، ويتملق النصارى ويشمخ بأنفه على المسلمين وحدهم ! مسكينة هذه الأمة العربية والإسلامية !

أما الصف الثانى فى هذه المؤسسات فهو يقوم على عدد غير قليل من الطوائف النصرانية وعدد مقارب من المسلمين التائهين ، ونفر معدود من المتمسكين بالعبادات الشخصية والأخلاق الجادة ... وتُتخذ القرارات المهمة على الأغلب فى هذا النطاق ، وقلّما يظفر الاسلام بخير فى هذا الجو ، فخصومه أيقاظ ، وأبناؤه ذاهلون ، والقلة الصاحية مخذولة .

ونجاح الإعلام فى إنشاء هذه البلبلة لا يعود إلى مهارته وحدها ، فمن ورائه إرهاب أجنبى شديد الخَفاء ، يطارد كل عنصر يمكن أن يُفيد الإسلام منه وهو يتخلى عن هذه السرية ويخلع القناع ويُملى مطالبه فى الأزمات التى تُحرجه ... كما حدث عندما طالبت الدول الكبرى بحل جماعة الإخوان المسلمين ، وظلت الأمور تتدحرج بعد ذلك حتى قُتِل « حسن البنا » فى القاهرة بعد ما رتبت الأجهزة الرسمية هذا القتل ...

إن الاستعمار قد يرى التصفية الجسدية لا بد منها !!

بَيْد أن المؤمنين لم يتراجعوا أمام هذه الشدائد ، والواقع أن المقاومة الإسلامية

خلال الثلاثين سنة الأخيرة بين كَرٍّ وفَرٍّ ، وهى لم تهدأ الا لتستعد ، ولم تخمد فى جبهة إلا لتشتعل فى أخرى .

وما دام الأعداء مُصرِّين على قتل الإسلام فيستحيل أن تجف الأرض من دماء المدافعين حتى يستنقذوا عقائدهم وشرائعهم وتراثهم كله ..

والتفاوت بين الجهاد فى عصرنا هذا وبين الجهاد القديم ، أن أعداء الإسلام - كما قلنا - اصطنعوا لهم رجالاً منا ، نعم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا أوعزوا إليهم أن ينهبوا رسالة محمد ﷺ ويبددوها فى كل فج ... ووقفوا هم يرقبون المعركة عن كثب ، ويمدون « عملاءهم » بما يحتاجون إليه بين الحين والحين .

ومكاسب أعداء الإسلام متفاوته بين قُطر وآخر ..

فما كسبته الصليبية العالمية من « مصطفى كمال » والمعجبين به شئ مثير حقاً ..

وما كسبته الشيوعية العالمية من « عبد الفتاح إسماعيل » فى اليمن الجنوبى - مثلاً - شئ مثير كذلك ..

والأمر يتطلب من المدافعين مزيداً من الدراسة واليقظة وتقليب النظر فى خطط المقاومة الواجبة أمام كلب الأعداء وكثرة المنافقين العملاء ..

وأمر آخر أجدر بالانتباه والحذر ، هو رعاية صفوف المؤمنين ، وتجنبها حماس الأصدقاء القاصرين ، وتطلع الأذكياء الطامعين .

يوشك أن يستدير الزمن كهيئته الأولى ، وتعود للاسلام قوّته وتخفق رايته ولكن دون ذلك أهوال لا نخشاها إن شاء الله ، وبين المحيطين الهادى والأطلسى تتحرك طلائع التحرير ، وتشتبك مع أعداء الله . وظنى أن العراك طويل ، ليكن .. حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

منذ شهور لقينى بمكة المكرّمة صومالى مسلم - والصومالبون كلهم مسلمون - بَيْدَ أن الرجل الذى لقينى كان حار العاطفة . ظاهر الغيرة على دينه وبلده مشدوداً إلى المسلمين حيث كانوا بالأخوة التى ربط الله بها القلوب ، قال لى

عاتباً : ما أذهلكم عنا ؟ .. قلت له : ما ننساكم فى سرّاء ولا ضرّاء ، ولقد تابعنا نشاطكم فى تحرير أرضكم من الاستعمار الحبشى بحماسة ! وتابعنا عودة الاستعمار الحبشى إلى هذه الأرض بأسى ! ومن قبل ومن بعد كنا نرقب أحوالكم الداخلية بضيق وحسرة !!

فقال لى الرجل وهو مُقطّب الجبين : هلاّ طالبتم بإطلاق سراح المعتقلين والمعتقلات من المسلمين والمسلمات !

فقلت له : ما كنتُ أحسب أن هناك نسوة معتقلات لديكم . الذى وقر فى نفسى من سنين أن عدداً أو أعداداً من العلماء والمجاهدين قُتلوا ، أو أودعوا السجون ، لأنهم قاوموا التغيير الشيوعى الذى قلب المجتمع الصومالى رأساً على عقب ، وقد حسبتُ أن تلك الحال انتهت بعد طرد الروس من الصومال وأن المجاهدين المسلمين سكن روعهم من صفحة جديدة من الحكم الوطنى المتحرر .. !!

فقال لى الرجل غاضباً : إنكم تجهلون عنا كل شئ ، إن الخبراء الروس طُردوا ولكن فلسفة الروس الحمراء لم تُطرد ، بل ظلت تحرسها الحراب الحادة ! ان ناظرة المدرسة تُمسك بمقص فى يدها فإذا وجدت فتاة طويلة الأكمام قطعت ما يستر الذراعين .

فإذا قاوّمت فالويل لها ولذويها !! ولقد أُغلقت مساجد كانت الفتيات المسلمات تتجمع فيها لتلقى الثقافة الدينية وأداء شعائر الصلوات الخمس ، وتوجد الآن معتقلات لمسلمات لا ذنب لهن إلا التدين وطاعة الله ، واستطرد الرجل - وهو يرى دهشتى - أنتم تعلمون أن عشرة من علماء المساجد قُتلوا رمياً بالرصاص لأنهم خطبوا ضد تشريعات الأسرة الجديدة التى سوّت بين الرجل والمرأة فى الميراث ، فهل تغيّرت هذه القوانين الكافرة وعاد للشريعة الإسلامية احترامها بعد خروج الروس من الصومال ؟ كلا ... إن الزحف الأحمر الذى قُتلَ - فى مقاومته - مَنْ قُتِل ، وسُجِنَ مَنْ سُجِن ، لا يزال يرين بوطأته الغليظة على صدورنا ...

وبصماته فى ميدان التعليم والتشريع لا تزال باقية ! إن لجنة العفو الدولية استنكرت الأسلوب الهمجى الشائن الذى قُتِلَ به علماء المساجد ! والذى وُورِيَت به جثثهم !

وهناك مسلمون كثيرون لا يدرون ما يقع بين ظهرانينا !!

وقلت للرجل وأنا خجلان : لقد استنكرنا هذه المجزرة فى حينها ، وشكونا إلى الله من اصطبغت يده بدمها ، ولكننا ظننا أن رؤساء الصومال قد عادوا إلى الإسلام بعد ما ظهر لهم غدر الروس وبعد ما تكشّف لهم أن الشيوعية حلم كاذب .

وضحك الرجل الصومالى ضحكة صفراء يائسة وهو يقول : لقد غدرت الشيوعية بحكامنا ، وكان لهم أمل فى أمريكا فلم تذكرهم فى وقت الشدة .. وكأن إذلال الشعب الصومالى أمر مرغوب .

كان لهذا الحوار الكئيب صدىً فى نفسى بعيد المدى ... تذكرتُ كلاماً للرئيس « زياد برى » يشرح فيه لماذا غيَّر أحكام القرآن الكريم فى المواريث .. قال : إن الإسلام دين تقدمى ، وأنه منح المرأة نصف الميراث لما كانت الجاهلية لا تعطيها شيئاً وكانت المرأة فى المجتمع متأخرة مادياً وأدبياً .. وكان هذا العطاء القرآنى تكريماً للمرأة .

ثم قال : ولكن بعد تقدم العصور رتساوى الذكورة والأنوثة فى الخصائص المادية والأدبية أضحت التسوية بين الجنسين لازمة ، وأضحى الحكم الإسلامى غير صالح لهذه المرحلة الجديدة ..

وظاهر أن الرئيس الصومالى يردد الكلام الذى قيل له فى موسكو وهو لا يدرى قليلاً ولا كثيراً عن النتائج المخزية لإلغاء الفروق الفطرية بين الرجل والمرأة ، ولا النتائج الحيوانية لإلغاء نظام الأسرة كله ، وما شرعه الدين للبيت من تعاليم تتصل بالحضانة والتربية والنفقة والتوجيه الخاص والعام .. إن بقاء العقائد والعادات مرتبط بجو البيت وكيان الأسرة ، ولذلك تُخاصِم الشيوعية بعنف الوضع الاجتماعى القائم على نظام الأسرة العتيد ، وقد تبعتها الفلسفات

المادية التى تسود أوروبا وأمريكا تقريباً .. وكان من نتائج ذلك أن الأولاد اللقطاء أخذوا يبرزون إلى المجتمعات بنسبة فاحشة ، دون قلق أو محاذرة ، وأن طوفان الشهوة غمر كل شئ ! ..

والمُستغرَب أن بعض الرؤساء مفتون بهذه التيارات الوضعية ، ويريد أن يحمل الجماهير عليها بالعصا ... وبإخماد أنفاس المعارضين ، وقد ظننت أن الصومال فى محنته سيعود إلى دينه ويثوب إلى رشده ، ولكنى كنت واهماً ...

وعرفتُ سر الهزائم التى أصابت جبهات التحرير فى أريتريا والصومال ، وليس سراً أن جماً غفيراً من القادة المسلمين قُتِلَ فى الميدان الأريتيرى ، قتلهم الشيوعيون قبل أن يقتلهم الأحباش ، إن هذه الجبهات هزمت نفسها قبل أن يهزمها الشيوعيون القادمون من كوبا ومن روسيا ... كانت هذه الجبهات تستطيع أن تُوَحد خطتها ، وأن تُنسِّق ضرباتها العسكرية فى شتَّى الميادين ، وقد ظلت أكثر من عام قديرة على ذلك ، ولكن انشغالها بضرب الإسلام وأحكامه وتعاليمه أذهلها عن المسلك الوحيد المؤدى إلى النصر مصداق قوله تعالى : ﴿ . . . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (١) .

إن الرئيس « زياد برى » تَنَقَّل بين جميع العواصم العربية يطلب النجدة ويشكو العدوان ، فهل سمع من أحد نُصحاً بضرورة تطهير البلاد من آثار الشيوعية فى التعليم والتشريع ؟

أكاد أشك من هذا الأمر ، بل لقد كنتُ أضحك وأنا أقرأ اسم الرئيس العربى يُكتب « سياد » لأن وكالات الأنباء العالَمية تقرأ الاسم مكتوباً بالحروف الرسمية فى الصومال بعد أن حُكِم بالإعدام على الحروف العربية - ثم يجئ الصحافيون العرب فيقلدون الخواجات فى نقل الاسم إلى « سياد » بدل « زياد » ما هذا الهزل ؟ كفر بالعروبة بعد الكفر بالإسلام !!

أما تتحرك الجامعة العربية للدفاع عن عنوانها وسط هذه الجهالات الصفيقة أم أنها تؤثر الصمت على أية حال ... ؟

* * *

(١) محمد : ٩